

الباب الثالث

وصف عن سورة لقمان وكتاب التحرير والتنوير

أ- سورة لقمان

سورة لقمان هي السورة الحادي والثلاثون من القرآن, وهي السابعة والخمسون في تعداد نزول السور, نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ. وعدت آياتها ثلاثاً وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة, وأربعاً وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة.^١

وروى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس: أنزلت سورة لقمان بمكة, وكذلك اتفق جمهور العلماء أن سورة لقمان أنزلت قبل هاجر النبي إلى المدينة.^٢ وقال الصابوني في تفسيره أن هذه السورة المكية تعالج موضوع العقيدة, وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي (الوحدانية, والنبوة, والبعث والنشور) كما هو الحال في السور المكية.^٣

^١ محمد الطاهر ابن عاشور, *التحرير والتنوير*, (الدار التونسية: تونس), ١٩٨٤ ص ١٣٨٠

^٢ M. Quraish Shihab, *Tafsir Al-Misbah: pesan, kesan dan keserasian Al-Qur'an* (Jakarta: Lentera Hati, ٢٠٠٢), hal. ٢٧٣

^٣ محمد علي الصابوني, *صفوة التفاسير*, المجلد الثاني (الدار القرآن الكريم: بيروت), ١٩٨١ م ص ٤٨٦

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري. وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة. إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى, ومن زوايا متنوعة, تتناول القلب البشري من جميع أقطاره, وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها.

هذه القضية الواحدة - قضية العقيدة - تتلخص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه. وفي اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل. وفي اتباع ما أنزل الله والتخلي عما عداه من مألوفات ومعتقدات.

والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعي التدبر لإدراك الأسلوب القرآني العجيب في مخاطبة الفطر والقلوب. وكل داع إلى الله في حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب. إنها تعرض هذه القضية في مجال العرض القرآني. وهو هذا الكون الكبير. سماؤه وأرضه. شمس وقمره. نهاره وليله. أجواؤه وبحاره, أمواجه وأمطاره. نباته وأشجاره... وهذا المجال الكوني يتكرر في القرآن الكريم. فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة, وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل, تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها, وتأخذ عليها المسالك والدروب.

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد، فإنها تعرض في السورة أربع مرات في أربع جولات، تطوف كل منها بالقلب البشري في ذلك المجال الفسيح، مستصحبة في كل مرة مؤثرات جديدة، ومتبعة أسلوباً كذلك جديداً في العرض والتناول. وتتبع هذه الجولات وهي تبدأ وتنتهي بطريقة عجيبة فيه متاع للقلب والعقل. إلى جانب ما فيه من دواعي التأثير والاستجابة.^٤

سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم الذي أدرك جوهر الحكمة، بمعرفة وحدانية الله وعبادته، والأمر بفضائل الاخلاق والاداب، والنهي عن القبائح والمنكرات.^٥

ولقمان اسم أعجمي لاعربي مشتق من اللقم وهو على ما قيل: ابن باعوراء قال وهب: وكان ابن أخت أيوب عليه الصلاة والسلام، وقال مقاتل: كان ابن خالته، وقال عبد الرحمن السهيلي: هو ابن عنقا بن سرون، وقيل: كان من أولاد آزر وعاش الف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفني إذا كفيت، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل، ونقل ذلك عن الواقدي إلا أنه قال: كان زمانه بين مُجَّد. وعيسى عليهما

^٤ سيد قطب، في ظلال القرآن سورة لقمان، (دار الشروق للنشر: مصر)، ص. ٣.

^٥ وهبة الزحلي، التفسير المنير، (دار الفكر المعاصر: بيروت) المجلد الحادي عشر، ص. ١٣٥.

الصلاة والسلام, وقال عكرمة والشعبي كان نبيا, والأكثر على أنه كان في زمن داود عليه السلام ولم يكن نبيا.

واختلف فيه أكان حرا أو عبدا والأكثر على أنه كان عبدا. واختلفوا فقيل: كان حبشيا, وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن الزبير قال: قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرا أفطس من النوبة, وأخرج هو وابن جرير, وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال: إن لقمان كان أسود من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة.^٦

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية: فبدأت بيان معجزة النبي وهي القرآن دستور الهداية الربانية, وموقف الناس منه, وفريق المؤمنين يصدقون بكل ما جاء فيه, فيظفرون بالجنان, وفريق الكافرين الساخرين الهازئين الذين يعرضون عما فيه من الايات, ويضلون عن سبيل الله جهلا وسفها, فيتلقون العذاب الأليم.

ثم تحدثت عن أدلة الوحدانية والقدرة الباهرة الله رب العالمين من خلق العالم والكون, وتلا ذلك بيان قصة لقمان الحكيم ووصاياه لخالدة لابنه, تعليما للناس

^٦ السيد محمود شكرى الألوسى البغدادي, روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, الجزء الحادي

والعشرون (احياء التراث العربي: بيروت-لبنان) ص ٨٢

وإرشادا لهم, وعلى رأسها نبذ الشرك, وبر الوالدين, ورقابة الله على كل صغيرة وكبيرة, وإقامة الصلاة, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, والتواضع واجتناب الكبر, ومشى الهوينى, وإخفاف الصوت.^٧

ب- كتاب التحرير والتنوير

١. حياة المؤلف

هو الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور, الشهير بالطاهر بن عاشور. الإمام الضليح في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية, شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم وفروعه الزيتونة. ورئيس المفتين الملكيين بتونس, ومن كبار علمائهم.^٨

كان مولده بتونس سنة ١٢٩٦ هـ,^٩ درس فيها وتخرج بشهادة التطبيع سنة ١٨٩٩م, ثم عين عام ١٩٣١م, وهو من أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع العلمي العربي بدمشق, وقد أسهم الشيخ إسهاما فعالا في الحركة الوطنية

^٧ وهبه الزخيلي, التفسير المنير.....ص.١٣٧

^٨ مُحَمَّد محفوظ, تراجم المؤلفين التونسيين, المجلد الثالث (بيروت: دار الغرب الإسلامي, م ١٩٨٤) ص. ٣٠٤

^٩ Abd. Halim, Kitab Tafsir al-Tahrir wa al-Tanwir Karya Ibnu 'Asyur dan Kontribusinya Terhadap Keilmuan Kontemporer, *Jurnal Syahadah* Vol. II, No.II, Oktober ٢٠١٤, hal. ١٨

بتونس, وقد تولى القضاء أكثر من عشر سنين, ثم تولى الافتاء, كما تولى
مشيخة الجامع الأعظم جامع الزيتونة.

وكان المفسر لغويا, نحوا, أدبيا, من دعاة الاصلاح الاجتماعي والديني,
وله أبحاث ودراسات ومقالات كثيرة نشرت في كبريات المجلات بتونس ومصر.
كانت وفاته بتونس سنة ١٣٩٣هـ.^{١٠}

٢. تعريف عام عن كتاب التحرير والتنوير

إن تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور من أهم إنجازات الشيخ وأعظمها,
فقد جمع فيه مؤلفه خلاصة علومه, وأبدى فيه آراه الفذة وتفتح فيه وأضاف نتفا
علمية, صرح هو باسم كتابه الأصلي: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد
وتفسير الكتاب المجيد, واختصرت هذا اسم باسم التحرير والتنوير من
التفسير.^{١١}

وهو من أبرز تفاسير القرن الرابع عشر ومن أدقهم في فهم كلام الله
المجيد. وكان متوسطا في معترك أنظار الناظرين, وفي موقف الحكم بين طوائف

^{١٠} محمد على إيازا, المفسرون حياتهم ومنهجهم, (وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي ١٣٣٣), ص. ٢٤١.

^{١١} محمد الطاهر ابن عاشور, تفسير التحرير والتنوير, الجزء الأول, (دار التونسية للنشر: تونس ١٩٨٤) ص. ٩-٨.

المفسرين, وفي استخراج معاني الكتاب العزيز, وما حواه من المسائل التي لم يذكرها المفسرون. وكان ممن استخدم العقل في فهم آيات القرآن.

وقال ابن عاشور في بيان غرضه من تأليفه هذا الكتاب, يقول بأن كتابة هذا التفسير لمصالح الدنيا والدين, وموثق شديد العرى من الحق المتين, والحاوي لكليات العلوم ومعاهد استنباطها, والأخذ قوس البلاغة من محل نياطها, طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع, وتفصيل من مكارم الأخلاق.^{١٢}

فخص تفسير التحرير والتنوير بعشرات المقدمات ما يتعلق بالعلوم فخص المستخدمة في بيان الآية القرآنية ومنها, الأولى: مقدمة في التفسير والتأويل وكون التفسير علما, الثانية: مقدمة في استمداد علم التفسير, الثالثة: مقدمة في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه, الرابعة: مقدمة فيما يحق أن يكون غرض المفسر, الخامسة: مقدمة في أسباب النزول, السادسة: مقدمة في القراءات, السابعة: مقدمة في قصص القرآن, الثامنة: مقدمة في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها, التاسعة: مقدمة في أن

^{١٢} محمد علي إيازا, المفسرون حياتهم ومنهجهم, ص. ٢٤٢.

المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها، والعاشرة: مقدمة في إعجاز القرآن.^{١٣}

٣. منهج التفسير

وكان طريقته في شروع التفسير، أن يبدأ باسم السورة وفضلها وفضل قراءتها، وترتيب نزولها، وتعيين سورة قبلها وبعدها، وبيان أغراض السورة، وعدد آياتها، ثم ذكر محتويات السورة، ثم يبدأ بتفسير الآية منتخباً جملة منها فيفسرها قطعة قطعة.

إهتم المفسر في تفسيره ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، وبيان تناسب اتصال الآيات بعضها ببعض، وهو منحنى جليل قد عني به الفخر الرازي وبرهان الدين البقاعي في كتابه المسمى بـ «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الأبي بما فيه مقنع، ومفسرنا جاء بما لم يسبق مثله، فقال في ذلك:

«لم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جملة، كأنها فقر متفرقة،

^{١٣} محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص. ١٠-١٠١

تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله واهتمت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة».

وما تهتم به الباحثة في هذا التفسير هو أن التفسير التحرير والتنوير هو التفسير التحليلي، اهتم بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت من ضبط كثير منه قواميس اللغة، جمع بين منهج السلف والخلف، مبسط في تفسيره، وهو من التفاسير التي تبقى في الأجيال ويستفيد منه الباحثون.^{١٤}

بالرغم أن هذا التفسير لم يشغل الحديث عن اللغة في المقدمات العشر في التحرير والتنوير جزءا خاصا به، وقد يرجع ذلك لدورها البارز في كل ما ذكره ابن عاشور في هذه المقدمات، فهي جانب مهم فيما تناوله في المقدمة الأولى (في التفسير والتأويل وكون التفسير علما) وفي المقدمة الثانية (في استمداد علم التفسير) وفي الثالثة (في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأى) وفي السادسة (في القراءات) وفي التاسعة (في أن المعاني التي تحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) وفي العاشرة (في إعجاز القرآن).

^{١٤} محمد علي إيازا، المفسرون حياتهم ومنهجهم، ص. ٢٤٣-٢٤٦

وقد أوضح ابن عاشور دور اللغة في المقدمات المذكورة هذه وعلاقتها بما عنون به كل مقدمة, وقام تفسيره على حيوية هذا الدور وتداخله, فما ترك من آية إلا واستوفى الجانب اللغوي حقه, يتناول كل كلمة منها, يفصل القول فيها من كل جانب لغويا كان أو شرعيا, حقيقة أو مجازا, يستعين بكل ما يمكن الاستعانة به من قرآن وحديث وشعر وقول مفسر. وعالم لغة أو غير ذلك من الشواهد, ومن وراء ذلك كله ثقافته الواسعة في هذا الميدان, وبعد حديثه عن الكلمة من حيث دلالتها اللغوية أو الشرعية يذكر موقع الجملة التي جاءت فيها هذه الكلمة في الإعراب ووجه العلاقة بينها وبين الجملة التالية لها, فالسورة عنده تمثل وحدة عامة مهما كان تعدد أغراضها.

ومما ذكره في "المقدمة الثانية" في بيان دور اللغة وقواعد العربية وعلاقتها بفهم معاني القرآن.

«أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة, كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيتهم, أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للعرب

الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم, والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه الغلط وسوء الفهم, لمن ليس بعربي بالسليقة, ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي, وهي: متن اللغة, والتصريف, والنحو, والمعاني, والبيان, ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم». وتعيننا هذه الفقرة على ترسم خطى بن عاشور في تفسيره اللغوي, فقواعد العربية طريق لفهم معاني القرآن, وما تعنيه هذه القواعد من مجموع علوم اللسان العربي, وهي متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان فضلاً عما استعمله العرب في أساليبهم في الخطب والشعر وتراكيب البلغاء منهم. وقد قدمنا الحديث عن "الشعر" لأنه أخطر ما دونه العرب على لسانهم وأكثر أنواع البيان بقاء وانتشاراً.

وفي سبيل تحديد الأسس التي قام عليها تفسيره للألفاظ نأتى بهذا المثال, ثم بأمثلة أخرى تفصل أبعاد هذا التفسير, وطريقة تناوله لصور الألفاظ

المختلفة. قال في تفسير (لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ), من قوله تعالى: (الم*ذَلِكَ
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ), سورة البقرة: الآية ١, ٢.

«حال من الكتاب أو خير أول أو ثان, والريب الشك, وأصل الريب
القلق واضطراب النفس, وريب الزمان وريب المنون نوابغ ذلك, قال الله تعالى:
(نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) سورة الطور: الآية ٣٠, ولما كان الشك يلزمه
اضطراب النفس وقلقها غلب عليه الريب فصار حقيقة عرفية, يقال رابه الشيء
إذا شككه أي يجعل ما أوجب الشك في حاله, فهو متعدد, ويقال أرابه كذلك
إذ الهمزة لم تكسبه تعدية زائدة, فهو مثل لحق والحق, وزلقه, وأزلقه, وقد قيل
إن أراب أضعف من راب, أراب بمعنى قرّبه من أن يشك, قاله أبو زيد, وعلى
التفرقة قال بشار:

أخوك الذي إن ربتّه قال إنما أرتب وإن عاتبته لان جانبه

في الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» أي دع الفعل الذي, في

التحريم إلى فعل آخر لا يدخل عليك في فعله شك في أنه مباح.

ويعنى ابن عاشور هنا بتوضيح معنى "الريب" وأصل هذه الكلمة,

ويأتي بشاهد من القرآن, ويبين حركة النفس في حال الشك وما يصاحبها من

قلق غلب عليه "الريب" نصار حقيقة عرفية, ويأخذ في شرح "رابه" دون همزة أو عند دخولها عليه, ثم يقارن بينهما من حيث الأقرب إلى كلام العرب كما ذكره أبو زيد, ويأتي بيت بشار لتوضيح الفرق بينهما, ثم بحديث يفسر به المقصود من "الريب".

وبعد فراغه من ذلك يتناول بالتفصيل معنى "الهدى" لغويا ويتبع نظائره ودلالته والمنقول منه, وما استقر عليه معناه في الشرع وأثره على المتقين. وقوله «هدى للمتقين» الهدى اسم مصدر الهدى, ليس له نظير في لغة العرب إلا سرى وثقى وبكى ولفى مصدر لفي في لغة قليلة, وفعله هدى هديا يتعدى إلى المفعول الثاني بإي, وربما تعدى إليه بنفسه على طريقة الحذف المتوسع.

«والهدى على التحقيق هو الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البغية, وهذا هو الظاهر في معناه لأن الأصل عدم الترادف, فلا يكون هدى مرادف لدل, ولأن المفهوم من الهدى الدلالة الكاملة, وهذا مرادف للمعنى المنقول إليه الهدى في العرف الشرعي».

«والهدى الشرعي هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل, وأثر هذا الهدى هو الاهتداء, فالمتقون يهتدون بهديه, والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون».

ويقول في "المتقين" «و المتقى من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية, والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه, فالمتقى هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر, والمراد هنا المتقين الله, أي الذين هم خائفون غضبه, واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه, فإذا قرئ عليهم القرآن استمعوا له وتدبروا ما يدعو إليه فاهتدوا».

«والتقوى الشرعية هي امثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهرا وباطنا أي اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه, فالكبائر كلها متوعد فاعلها بالعذاب الأليم».

وعن كل من الهدي والمتقين يقول: «والمراد من الهدى ومن المتقين في الآية معناهما اللغوي, فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيرية, وأن المستعدين للوصول به إليها هم المتقون, أي هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العقابة وصانوا أنفسهم من

خطر غضب الله, هذا هو بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقرة وحرمة على حمل به». وابن عاشور - كما رأينا في هذا المثال - يربط بين المعنى اللغوي و الدلالة القرآنية للفظة الواحدة, ثم يمد هذه الربط (بين المعنى والدلالية) إلى المعنى الشرعي ويسهب القول فيه.

وقد سار تفسيره للألفاظ على هذا النهج, يتناول اللفظة الواحدة بين معناها ومبناها وأصلها ودلالاتها في السياق القرآني والمعنى الشرعي لها إن الألفاظ التي تتحمل ذلك, ثم يجمع بين كل كلمتين أو أكثر في الآية الواحدة يربط بين المراد منها جميعا, وفي تفسيره هذا يحيط اللفظة الواحدة بكثير من الشواهد التي سبق الحديث عنها, ومهما كانت كثرة هذه الشواهد فإن جهوده اللغوية كانت ظاهرة, وكثيرا ما كان يستقل بهذه الجهود في تناول هذه المعاني.^{١٥}

^{١٥} نبيل أحمد صقر, منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير "التحرير والتنوير", (الدار المصرية: ٢٠٠١م),